30 إلفريدة يلنيك

«لا أضع على خشبة المسرح شخصيات متباعدة السمات أو الملامح. فما أصنعه هو جعل الأفكار تلتقى . إن شخصياتى مساحات لُغوية أو نمطية كما لو أنَّها فى ساحات الحرب . وهى لا توجد إلاَّ عبر كلامها نفسه . عندما لا تتكلَّم، تختفى!!» .

الكاتبة النمساوية الفائزة بجائزة نوبل في الأدب عام 2004م .

والتي وظَّفت أدبها لإماطة اللثام عن الظواهر الاجتماعية غير السوية : كالاستغلال الجنسي للمرأة، والعنف الأُسري، والتمييز العنصري .

وبفضل أدبها كذلك، استطاعت أن تكون هاجس الحركة النازية الجديدة وصانعيها، بفضح الأكاذيب ونقل الحقائق التاريخية التي يجب عدم نسيانها .

الميلاد وذكريات الطفولة :

طالما وصفت «إلفريدة يلنيك» بالمرأة «الخلاسية» دينيًا وثقافياً، فوالدها المهندس العصامي، تشيكي الأصل الذي ينحدر من طبقة فقيرة، ولكن ذات اهتمام بالعلم والثقافة، وأُمُّها نمساوية تنتمي إلي الطبقة البورجوازية.

ولدت «إلفريدة يلنيك» Elfriede Jelinek في العشرين من أكتوبر عام 1946م بمدينة «شتايرمار» بالنمسا، ومنذ الصِغر سعت والدتها إلي تعليمها الموسيقي حالمة بمستقبل موسيقي باهر لابنتها، فأدخلتها إلي معهد ديني في فيينا وكانت في الرابعة

من عُمْرها حيث تعلَّمت الرقص الكلاسيكي واللغة الفرنسية . لكن أمَّها لم تلبث أن أجبرتها، وكانت قد بلغت السابعة من عُمْرها، علي متابعة دروس في العزف علي الكمان والبيانو إضافة إلي دروسها الروتينية العادية.

علاقة متوترة بين «إلفريدة» وأمِّها :

عندما التحقت «إلفريدة» بالمعهد الموسيقي في فيينا، لم تحتمل الضغوط التي مارستها أمَّها عليها ؛ فمرضت وشهدت أزمة نفسية مروعة كادت أن تقضي عليها . ولعلَّ هذه العلاقة المتوترة بينها وبين أمِّها ستكون مادَّة روايتها الرائعة «عازفة البيانو» حيث تستعيد جزءاً من سيرتها الذاتية ولكن من خلال شخصية أخري تُدعى«أريكا» . وقد حفزها «قسوة» أمها علي التمرُّد لاحقًا ضدّ السلطة أيًّا كانت، ما عدا السلطة «الأبوية» كون والدها كما تقول: «كان غائباً دوماً» !!

اتجهت «إلفريدة» إلي اللغة التي لم تدفعها أمها إليها مفضلة الموسيقى، تقول «إلفريدة»: «والدي شجعني علي تأكيد حضوري من خلال اللغة».

منذ نهاية الستينيات من القرن المنصرم باشرت «إلفريدة» نشر نصوصها الأولي وبعض القصائد، وحازت أولي جوائزها الأدبية الصغيرة . لقد بدأت شاعرة وكتبت بعض البرامج الإذاعية .

«إلفريدة يلنيك» .. هاجس الحركة النازية الجديدة في النمسا :

قيل عن «إلفريدة يلنيك» (الكاتبة المناضلة)، فهي التي دقت مسماراً في تاريخ النازية، فعلاقتها بالسلطة النمساوية شديدة الالتباس، وكذلك بالتاريخ النمساوي الحديث . وهذه العلاقة عبَّرت عنها «إلفريدة» في الكثير من أعمالها الروائية والمسرحية، ساعية إلي فضح العلاقة التي جمعت ما بين النمسا والنازية خلال فترة من الزمن.

لقد استطاعت «إلفريدة يلنيك» أن تكون «هاجس» الحركة النازية الجديدة وصانعيها، وقد خاف هؤلاء من أدبها الذي يفضح الأكاذيب وينقل الحقائق ويُذكِّر المواطنين النمساويين بالكثير من الأمور التاريخية التي يجب عدم نسيانها.

عالم «إلفريدة يلنيك» الروائى :

كانت روايتها الأولي بعنوان «نحن طعوم يا طفلي»، وقد صدرت في عام 1970م، وفي العام 1972 م تبعتها برواية ثانية هي «ميكايل»، وفي العام 1975 م بثالثة هي رواية «العشيقات».

رواية : المُبعدون :

عصابة من المراهقين .. هم نتاج مجتمع نسي ماضيه المتوحش !!

صدرت هذه الرواية في عام 1980م، حيث استوحت فكرتها من حادث حقيقي كان قد روَّع النمسا بأسرها، إنَّها قصة أربعة مراهقين في خمسينيات القرن المنصرم وتحديداً في مدينة فيينا، يتّحدون ويؤلفون عصابة إجرامية لسرقة حقائب المارَّة وضربهم وسبهم. ودفعت هذه الأعمال بزعيم العصابة ويُدعي (راينر) إلي ارتكاب مجزرة كبيرة ويقتل عائلة بأكملها . لم تكتف رواية «المُبعدون» - بالطبع - بسرد هذا الحادث المُفجع وإنَّما عمدت «إلفريدة» إلي فضح مجتمع يحاول أن ينسي ماضيه متناسياً (شياطينه)، وكأنَّه يحكم علي أبنائه الجُدد بأن يعيدوا اختلاق «أحوال التوحش» التي عرفها آباؤهم من قبل. وكان لابدّ لهذه الرواية من أن تحظى برواج كبير على رغم معارضة السلطة لها .

رواية : عازفة البيانو :

فتاة تهرب من الطغيان وتحكُّم الأم، إلي حياة ماجنة وعلاقات مُحرَّمة شاذة!!

صدرت في عام 1983 م، وهي رواية أشبه بالسيرة الذاتية التي تستعيد الكاتبة عبرها وبعضًا من علاقات الماضي المتوتِّر والكئيب وخصوصاً علاقتها بأمّها التي كانت مسيطرة وقاسية . وبدت هذه الرواية أيضاً أقرب إلي التحليل القاسي في فضح «شخصية امرأة» من خلال الموسيقي أو باسمها .

لقد عرضت هذه القصة في فيلم سينمائي يحمل عنوان الرواية نفسها، كان الاعتقاد بأن هذا الفيلم يُعالج الخاصية المتأرجحة لإشكالية الجنس في المجتمع المفتوح الذي تحوَّلت فيه الحياة الجنسية للفرد إلي قضية شخصية، والقارىء للرواية ذاتها، يعرف حقاً، أن «إلفريدة يلنيك» تمتلك الجرأة على ملامسة مواضيع حساسة، متجاوزة حدود

المنظومة القيمية للمجتمع، وذلك بلغةٍ تتمتع بخصوصية لا تعرف الرَّحمة : لغة وَصْفية ووظيفية تخلو من العواطف والجماليات المعروفة .

تحكي الرواية قصة فنانة تشعر منذ طفولتها بأن الفن ليس سوي شكل من أشكال التحكُّم والطغيان، فتهرب من هذا الطغيان ومن تحكُّم أمِّها إلي الحياة، تهرب وهي عديمة الخبرة، من واقعها اليومي، هذه الفتاة التي تعيش بلا رفيق حياة وسط طبقة اجتماعية نمساوية وُسطي تميل إلي الفاشية في خمسينيات القرن المنصرم، فشلت في الوصول إلي مرتبة عازفة بيانو في أوركسترا مرموقة، فرُغم كل جهود أمِّها ذات الشخصية المهيمنة عليها، لينتهي بها المطاف أخيراً إلي العمل كمُعلِّمة بيانو بسيطة .. وبالرغم من أنَّها تبدو ابنة مثالية كرَّست حياتها لرعاية والدتها، إلاَّ أنَّها تخفي جانباً آخر من حياتها، فهي تتعاطي عروض الجنس الرخيصة ليلاً، كما أنَّها تشترط علي الشاب الذي وقع في شباكها، أن يعاملها بشكل سادي[1] قبل أن تمارس الحبّ معه !! لتكتشف الفتاة أن كل هذا الذي تمارسه لا يؤدي إلاَّ إلي تأكيد تبعيتها .

وخلال هذه المعارضة تتخيَّل «إلفريدة» ما يشبه التكملة لمسرحية «بيت الدُّمية»، لكنها تنقل المكان إلي النمسا وتجعل الزمان نهاية العشرينيات من القرن الماضي . هذا، وتتسم مسرحية «إلفريدة يلنيك» باستخدامها لتقنية المونتاج والعناصر التجريبية، كما نجد أن الشخصيات فيها تظهر علي شكل قوالب لُغوية . فهم يعبرون طوال الوقت عن اهتماماتهم ويعلقون علي تصرُّفاتهم .

ولا غرابة في أن تعتبر «إلفريدة» المسرح مكاناً «مركباً» أو «مصطنعاً» . وفي رأيها أن على الممثلين ألاَّ يعكسوا أيّ بُعد«سيكولوجي» خلال أدائهم الأدوار، وتفترض

---

(1) الساديَّة Sadism ضرب من الانحراف الجنسى، يتميَّز بالحصول على اللَّذة الجنسيَّة والاستمتاع الشهوانى من جرَّاء إساءة معاملة الأفراد الآخرين من الذكور والإناث. تستخدم هذه اللفظة أحيانا بشكل عام للدلالة على حبِّ القسوة والفظاظة والتلذُّذ بتعذيب الطرف الثانى. وهى مشتقَّة من اسم المركيز الفرنسى "دى ساد" الذى كتب مطولاً فى هذا الموضوع وارتكب العديد من جرائم الجنس. (أسعد رزق: موسوعة علم النفس، مراجعة : د. عبد الله عبد الدايم، ط ذ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1977م، ص 154).

أن اللغة المشغولة بإحكام ، يجب أن تُلقى في شكل طبيعي، وأن تُقدَّم كما لو أنَّها نوع من مسرح «الفودفيل» . وتقول الكاتبة عن مسرحها : «لا أضع علي خشبة المسرح شخصيات متباعدة السمات أو الملامح . فما أصنعه هو جعل الأفكار تلتقي . إن شخصياتي مساحات لُغوية أو نمطية كما لو أنَّها في ساحة الحرب . وهي لا توجد إلاَّ عبر كلامها نفسه . عندما لا تتكلَّم، تختفي» .

مسرحية : الكوميديا الموسيقية عن كلارا :

صدرت في عام 1984م، وهي مسرحية بطلتها امرأة أيضاً هي «كلاراشومان» التي تبوأت في عصرها مرتبة اجتماعية راقية . إنها عازفة بيانو وقدَّمت الكثير من المقطوعات الموسيقية فأصبحت من كبار الموسيقيين، لكنها ظلَّت محصورة داخل سور دورها كأم وزوجة وكامرأة فنانة. واجهت كلارا - كما تتبدَّى في النص المسرحي- سلطتين ذكوريتين: الأولي تتمثَّل في شخص زوجها الفنان العبقري والمجنون «روبرت شومان»، والثانية سلطة التدمير البسيط الذي يُجسده الشاعر المتطرف «غابريل دانو نزيو» . وفي هذه المسرحية تتأمَّل «إلفريدة» في «بنيات» التصرُّف المثالي لبعض الأشخاص أو الوجوه التاريخية المعروفة، عبر مواقف هي أشبه بالمفاتيح التي تنقلها إلي عصر آخر، تصف «إلفريدة» هذه السلسلة من التبعية، وهي لا تحاكم أحدا، وإنما تترك القصة تتحدث عن نفسها .

رواية : متعة :

رواية تُركز علي خلق لُغة أنثوية إباحية جديدة !!

صدرت هذه الرواية في عام 1989م، حيث يتكثف أسلوب «إلفريدة يلنيك» بشكل جلي، فهي أرادت فيها، وعلي حد قولها : «لغة أنثوية إباحية جديدة»، لينتهي بها المطاف أخيراً إلي اختلاق لُغة استحواذية مُصطنعة تتميَّز بالرتابة، فهدفها الأعلى النابع من هواجسها المَرضية يكمن في تحويل اللغة إلي مُجرَّد سلاح ضد آفات المجتمع . ولذلك لا تلعب أحداث الرواية إلاَّ دورًا ثانويًا.

رواية : أطفال الموتى:

رواية تنبش في التاريخ النازي الذي عرفته النمسا!

صدرت الرواية في عام 1995م وفيها تُعيد «إلفريدة يلنيك» إحياء مَنْ تسميهم «موتي الأمة»، وتوزّعهم بين البشر الأحياء في نزل جميل يُدعى «وردة جبال الألب» بغية أن تُعاد إليهم حقوقهم، وأولها الحياة : يبرز في هذه الرواية هاجس «التاريخ النازي» الذي عرفته النمسا والذي طالما شغل وجدان الكاتبة وذاكرتها معًا، وهي في هذه الرواية تدقّ مسمارًا في هذا التاريخ الكريه، ولم تخلُ الرواية من الطابع المجازي أو «الاستعاري» الذي يرمز إلي النمسا وهي تنوء تحت ثقل ماضيها المتواري وسط ركام السنوات .

عالم «إلفريدة يلنيك» المسرحي الشاسع :

علاوة علي كون «إلفريدة يلنيك» روائية، وروائية طليعية، فهي كاتبة مسرحية أيضاً، وقد يكون المسرح هو الذي صنع شهرتها في البداية .

مسرحية : ما حدث بعد أن تركت نورا زوجها أودعامات المجتمعات :

ظهرت هذه المسرحية في عام 1977م للمرَّة الأولي عام 1979 م في احتفالية «خريف شتاير» في جراتز، وهي أقرب ما تكون إلي المعارضة الدرامية لمسرحية «بيت الدُّمية» للكاتب النرويجي الشهير «إبسن» . تبدأ المسرحية علي لسان «نورا» التي تقول : «لستُ امرأة ليس هو عصرها ولا عصر الجمهور» .

وفي عام 1985م عرضت «لإلفريدة يلنيك» كوميديا هزلية بعنوان «مسرح البورج».

مسرحية : مرض أو نساء عصريات :

عرضت للمرّة الأولي عام 1987م، وتجعل «إلفريدة يلنيك» في هذه المسرحية النساء وهن يتحدثن عن أنفسهن، ويصبغ هذه المسرحية سيناريو مُرعب من الدم والعنف، فنسوة هذه المسرحية هن «مصاصات دماء» يعشن من دماء الآخرين الذين هم رجال يعملون تحديدًا في حقل الطب وخصوصاً الطب النسائي . وتنتهي هذه المسرحية بقتل

كائن أنثوي يتكوَّن من امرأتين ملتصقتين في منطقة الموت التي يحكمها الرجال . والمجال الوحيد المفتوح أمام النساء في هذه المسرحية هو المرض : «أنا مريضة، إذًا أنا موجودة»، هكذا تقول «كارميلا» إحدي المرأتين في الكائن الأنثوي .

مسرحية : مطعم علي الطريق :

التي صدرت عام 1992م، حيث تتناول حياة عدد من الأزواج يلتقون في مطعم ويتصرَّفون كما يحلو لهم، متمتعين بوقتهم، إنَّهم أشبه بالأشخاص اللامبالين والفاقدين لأى إحساس بالحياة والمسؤولية . إنهم أشخاص لا منتمون، مفتونون بما تُقدمه لهم الشاشة الصغيرة من أوهامٍ صغيرة!!

ترجمات بالجملة :

لقد ترجمت أعمال «إلفريدة يلنيك» إلي لغات عالمية كثيرة علي رغم صلابة لغتها وصعوبة نقلها من الألمانية إلي لغة أخري . وأعمالها الروائية والمسرحية متوافرة بمعظم اللغات ما عدا اللغة العربية التي لم تترجم إليها حتي الآن .

السمات الإبداعية عند «إلفريدة يلنيك» :

استطاعت «إلفريدة يلنيك» أن «تصنع» لُغة خاصة بها، وجعلت منها سلاحاً فنياً وجمالياً ضدّ آفات المجتمع الغربي الحديث وضدّ سياسة التمييز العنصري والطبقي .

وعالم «إلفريدة يلنيك» عالم خاوٍ، مُخيف، غريب الأطوار . فيه يتحوَّل الرجال إلي مُجرَّد كائنات متوحشة تُحركها غرائزها، وفيه تتحوّل النساء إلي مخلوقات شهوانية مطيعة، وصاغرة، ومستسلمة لرغبات الرجال . كما أنَّه عالم محدود يقتصر منظوره علي المجتمع النمساوي فقط !

ولا شك أن المرأة حاضرة بقوةٍ في أعمالها التي تعترف بوضوح يصل إلي درجة السذاجة قائلة : «في الواقع، أنا لا أعرف شيئاً عن الحياة»!!. ولا ريب في أن التزامها الأخلاقي بتوظيف أدبها لإماطة اللثام عن ظواهر اجتماعية غير سوية مثل : الاستغلال الجنسي للمرأة، والعنف داخل الأسرة، والتمييز العنصري، وتزايد نفوذ اليمين المتطرف في النمسا، يستحق التقدير والاحترام . ولكن، هل يُشكِّل إفراط الكاتبة غاية

في حد ذاتها؟ وهل تأثير الصدمة، التي تهدف كل كتاباتها إلي تحقيقه، يُبرِّر أسلوب السرد الاختزالي، ولُغته المصطنعة؟

آراء النُّقَّاد في التجربة الإبداعية «لإلفريدة يلنيك» :

يقول الناقد الألماني الشهير «هيلموت بوتيغر» في كتابه «ما بعد اليوتوبيا»، وفي مقالة مطولة بعنوان «يلنيك والرَّغبة» : إن رفضها الراديكالي للعناية بجماليات اللغة يقترن بإجادتها التعامل مع وسائل الإعلام ،ويُضيف قائلاً : إنَّها الكاتبة التي كانت -يومًا- عضواً في الحزب الشيوعي النمساوي، والتي تحوَّلت بعينها إلي كليشيه، رغم أن موقفها يُعارض، مبدئياً، كل الكليشيهات وكل الصور الاجتماعية النمطية .

ويقول الناقد «لؤي المدهون» : بغض النظر عَمَّا إذا كانت التجربة الإبداعية عند «إلفريدة يلنيك» تُشكِّل تحرُّراً من الذات، أو أنَّها وليدة طفولتها أُحادية الجانب، فإن الكاتبة الناضجة التي تصبو إلي الوصول إلي العالمية، هي تجربة خلاص بقدر ما هي فعل مواجهة . حقاً، إن «إلفريدة يلنيك» مثقفة ملتزمة نجحت في «أخلقة» أدبها، أى تطويعه لخدمة رؤيتها الأخلاقية، حتي استحوذت مواضيعه علي إبداعها الأدبي . وعلي هذا النحو فشلت، كما فشل الكثيرون من قبلها، في توحيد ما لا يتحد . فالأدب العالمي، الذي يستحق دوما الفوز بجائزة نوبل هو أدب يتجاوز القيود والحدود، ولا يعرف الإقليمية .

«إلفريدة يلنيك» .. وفوزها بجائزة نوبل في الأدب :

في عام 2004م أُعلن فوز «إلفريدة يلنيك» بجائزة نوبل للآداب، وقد بدا فوزها مفاجأة للكثيرين، خاصة وأنَّها المرَّة الأولى التي تُمنح فيها هذه الجائزة إلي شخصية نمساوية .

وقد قالت الأكاديمية السويدية في حيثيات وأسباب فوزها بالجائزة: إنَّه جاء تقديرًا للفيض الموسيقي للأصوات والأصوات المضادة في رواياتها، وأن أعمالها تكشف بشغف لُغوي استثنائي العبثية والسلطة الاستبدادية للمسلمات الاجتماعية.

ردود أفعال متناقضة عقب فوز «إلفريدة يلنيك» بجائزة نوبل:

اعتبر البعض فوز «إلفريدة يلنيك» بجائزة نوبل في الأدب فوزاً للنمسا، ولكن بعض المقربين إلي السلطة، وأصدقاء الزعيم اليميني المتطرف «يورغن هايدر» لم يتحمسوا لهذا الفوز، بل امتعضوا منه . إذ إنَّهم لم ينسوا موقف هذه الكاتبة المتمردة من السلطة واتهامها الزعيم «هايدر» بـ «النازي الجديد».

غير أن معظم الكُتَّاب النمساويين فرحوا بهذه الجائزة، حتي الروائي الكبير «بيتر هاندكه» المرشح بدوره لهذه الجائزة رحَّب بالفوز قائلاً : «إنَّه لأمر لا يُصدَّق، رائع». أمَّا الكاتب «روبرت شيندل» فيقول: «جائزة نوبل هذه هي مكافأة للنمسا الأُخرى، التي ترفض العلاقة الغامضة جدًّا مع الماضي».

وقال الكاتب «جيرهارد رويس»: «إنَّه عيد فرح، هذه الجائزة هي عقاب لسياسة تقول: إن الأدب ليس إلاَّ أمراً هامشياً ومادة لإضاعة الوقت».